

هو العليم

قانون العلية وتطور العلم

الاعتقاد بالله والجهل بعلم بعض الظواهر

سلسلة بحوث من تفسير الميزان، البحوث الاعتقادية، شبهات حول أصل الدين

إعداد: الهيئة العلمية في مدرسة الوحي

المصدر: تفسير الميزان ج ١



@MadrastAlwahy



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين
ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين

ما أغفل هؤلاء الذين يعدّون الصناعات من الأشياء التي يعملها الإنسان مصنوعة مخلوقة للإنسان مقطوعة النسبة عن إله العالم عزّ اسمه مستندين إلى أنها مخلوقة لإرادة الإنسان واختياره.

هل منشأ الاعتقاد بالله هو الجهل بعلم بعض الظواهر؟

بيان الشبهة

فطائفة منهم وهم أصحاب المادّة من المنكرين لوجود الصانع زعموا أنّ حجة المليين^١ في إثبات الصانع: أنّهم وجدوا في الطبيعة حوادث و موجودات جهلوا عللها الماديّة، و لزمهم من جهة القول بعموم قانون العلّيّة والمعلولية في الأشياء و الحوادث أن يحكموا بوجود عللها، و هي مجهولة لهم بعد، فأنّج ذلك القول بأنّ لهذه الحوادث المجهولة العلّة علّة مجهولة الكنه هي وراء عالم الطبيعة؛ و هو الله سبحانه؛ فالقول بأنّ الصانع موجود فرضيّة أوّجب افتراضها ما وجده الإنسان الأوّل من الحوادث الماديّة المجهولة العلل، كالحوادث الجويّة و كثير من

^١ المعتقدين بالأديان والملل الإلهيّة. (م)

الحوادث الأرضية المجهولة العلة، وما وجده من الحوادث والخواص الروحية التي لم يكشف العلوم عن عللها المادية حتى اليوم.

قالوا: وقد وفقت العلوم في تقدمها الحديث لحلّ المشكل في الحوادث المادية، وكشفت عن عللها فأبطلت من هذه الفرضية أحد ركنيها، وهو احتياج الحوادث المادية المجهولة العلة إلى علل ورائها، وبقي الركن الآخر وهو احتياج الحوادث الروحية إلى عللها، وانهائها إلى علة مجرّدة، وتقدّم البحث في الكيمياء الآلي^١ جديدًا يعدنا وعدًا حسنًا أن سيطلع الإنسان على علل الروح، ويقدر على صناعة الجراثيم الحيوية، وتركيب أيّ موجود روحيّ وإيجاد أيّ خاصّة روحية، وعند ذلك ينهدم أساس الفرضية المذكورة ويخلق الإنسان في الطبيعة أيّ موجود شاء من الروحيّات كما يخلق اليوم أيّ شيء شاء من الطبيعيات، وقد كان قبل اليوم لا يرضى أن ينسب الخلق إلا إلى علة مفروضة فيما وراء الطبيعة، حملة على افتراضها الجهل بعلة الحوادث. هذا ما ذكره.

الجواب الأول: المعتقدون بالله يعتقدون بأنه علة لجميع العالم حتى ما علموا علله الطبيعية

وهؤلاء المساكين لو أفاقوا قليلاً من سكرة الغفلة والغرور، لرأوا أنّ الإلهيّين من أوّل ما أذعنوا بوجود إله للعالم - ولن يوجد له أوّل - أثبتوا هذه العلة الموجدة لجميع العالم، وبين أجزاء حوادث معلومة العلة وفيها حوادث مجهولة العلة، والمجموع من حيث المجموع مفتقر عندهم إلى علة خارجة، فما يثبت أو لئلك غير ما ينفيه هؤلاء.

فالمثبتون - ولم يقدر البحث والتاريخ على تعيين مبدأ لظهورهم في تاريخ حياة النوع الإنساني - أثبتوا لجميع العالم صانعاً واحداً أو كثيراً - وإن كان القرآن يثبت تقدّم دين التوحيد على الوثنية^٢، وقد بين ذلك الدكتور ماكس مولر الألمانى المستشرق صاحب التقدّم في حلّ

^١ ويسمى أيضاً الكيمياء الحاسوبية وهو مجال حديث مجال يجمع بين الكيمياء والتقنية بهدف صنع اكتشاف وصنع المواد والمركبات الكيميائية بشكل أسرع وأدق. (م)

^٢ انظر: تفسير الميزان ج ٦، ص: ١٠٣. والبحث المنتخب في موقع مدرسة الوحي تحت عنوان: حقيقة التوحيد في الكتاب والسنة عند العلامة الطباطبائي قدس سره (نفي الوحدة العددية عن الله)

الرموز السنسكريتيّة - و هم حتّى الإنسان الأوّل منهم يشاهدون العلل في بعض الحوادث الماديّة، فإثباتهم إلهاً صانعاً لجميع العالم استناداً إلى قانون العلّيّة العام ليس لأجل أن يستريحوا في مورد الحوادث المجهولة العلل حتّى ينتج ذلك القول باحتياج بعض العالم إلى الإله و استغناء البعض الآخر عنه، بل لإذعانهم بأنّ هذا العالم المؤلّف من سلسلة علل و معلولات طبيعيّة بمجموعها و وحدانيّتها، لا يستغني عن الحاجة إلى علّة فوق العلل تتّكي عليها جميع التأثيرات و التّأثرات الجارية بين أجزائه، فإثبات هذه العلّة العالية لا يبطل قانون العلّيّة العامّ الجاري بين أجزاء العالم أنفسها، و لا وجود العلل الماديّة في موارد المعلولات الماديّة يغني عن استناد الجميع إلى علّة عالية خارجة من سلسلتها، و ليس معنى الخروج و قوف العلّة في رأس السلسلة، بل إحاطتها بها من كلّ جهة مفروضة.^١

و من عجيب المناقضة في كلام هؤلاء أنّهم قائلون في الحوادث و من جملتها الأفعال الإنسانيّة بالجبر المطلق، فما من فعل و لا حادث غيره إلا و هو معلول جبريّ لعلل عندهم، و هم مع ذلك يزعمون أنّ الإنسان لو خلق إنساناً آخر كان غير منته إلى علّة العالم لو فرض له علّة.

و هذا المعنى الذي قلنا - على لطفه و دقّته و إن لم يقدر على تقريره الفهم العاميّ الساذج لكنّه موجود على الإجمال في أذهانهم حيث قالوا باستناد جميع العالم بأجمعه إلى الإله الصانع و فيه العلل والمعلولات. فهذا أولاً.

الجواب الثاني: قانون العلّيّة عامّ للعلل الطبيعيّة المعلومة وغيرها

ثمّ إنّ البراهين العقليّة التي أقامها الإلهيون من الحكماء الباحثين أقاموها بعد إثبات عموم العلّيّة و بنوا فيها على وجوب انتهاء العلل الممكنة إلى علّة واجبة الوجود، و استمرّوا على هذا

^١ وذلك لأنّ الوحدة التي تتّصف بها هذه العلّة ليست وحدة عدديّة، بل هي وحدة حقيقيّة كما أثبت في الحكمة المتعاليّة. راجع حول هذا الموضوع كلام العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان ج ٦، ص: ٨٦ - ١٠٥. والبحث المنتخب في موقع مدرسة الوحي تحت عنوان: حقيقة التوحيد في الكتاب والسنة عند العلامة الطباطبائي قدس سره (نفي الوحدة العدديّة عن الله)، وانظر في معاني الوحدة وإثبات الوحدة الحقيقيّة لله تعالى كتاب الشمس الساطعة ص ١٨٤ - ٢٠٣.

المسلك من البحث منذ أُلوف من السنين من أقدم عهود الفلسفة إلى يومنا هذا، و لم يرتابوا في استناد المعلولات التي معها عللها الطبيعيّة الممكنة إلى علّة واجبة، فليس استنادهم إلى العلة الواجبة لأجل الجهل بالعلة الطبيعيّة، وفي المعلولات المجهولة العلل كما يتوهم هؤلاء، وهذا ثانيًا.

الجواب الثالث: القرآن يقرّ جريان قانون العليّة في جميع أجزاء العالم

ثمّ إنّ القرآن المثبت لتوحيد الإله إنّما يشته مع تقرير جريان قانون العليّة العامّ بين أجزاء العالم، و تسليم استناد كلّ حادث إلى علّة خاصّة به، و تصديق ما يحكم به العقل السليم في ذلك، فإنّه يسند الأفعال الطبيعيّة إلى موضوعاتها و فواعلها الطبيعيّة، و ينسب إلى الإنسان أفعاله الاختياريّة في آيات كثيرة لا حاجة إلى نقلها، ثمّ ينسب الجميع إلى الله سبحانه من غير استثناء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، و قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، و قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^١، و قال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^٢، فكل ما صدق عليه اسم شيء فهو مخلوق لله منسوب إليه على ما يليق بساحة قدسه و كماله، و قد جمع في آيات آخر بين الإثباتين جميعا فنسب الفعل إلى فاعله و إلى الله سبحانه معا كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^٣، فنسب أعمال الناس إليهم و نسب خلق أنفسهم و أعمالهم إليه تعالى، و قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^٤، فنسب الرمي إلى رسول الله و نفاه عنه و نسبه إلى الله تعالى إلى غير ذلك.

و من هذا الباب آيات آخر تجمع بين الإثباتين بطريق عام كقوله تعالى: ﴿وَوَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^٥، و قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ إلى أن قال ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ

^١ سورة الزمر، الآية ٦٢.

^٢ سورة الأعراف، الآية ٥٤.

^٣ سورة طه، الآية ٥.

^٤ سورة الصافات، الآية ٩٦.

^٥ سورة الفرقان، الآية ٢.

مُسْتَظَرٍّ^١، و قال تعالى: (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)^٢، و قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)^٣، فإنَّ تقدير كلِّ شيء هو جعله محدودًا بحدود العلل الماديّة و الشرائط الزمانيّة و المكانيّة.

و بالجملة فكون إثبات وجود الإله الواحد في القرآن على أساس إثبات العلّيّة و المعلوليّة بين جميع أجزاء العالم، ثمّ استناد الجميع إلى الإله الفاطر الصانع للكلِّ مما لا يعترّيه شكّ و لا ريب، لا كما يزعمه هؤلاء من إسناد البعض إلى الله و إسناد الآخر إلى علله الماديّة المعلومّة، و هذا ثالثًا.

الدافع إلى هذه الشبهة

نعم حملهم على هذا الزعم ما تلقّوه من جمع من أرباب النحل الباحثين عن هذه المسألة و أمثالها في فلسفة عاميّة كانت تنشرها الكنيسة في القرون الوسطى. أو يعتمد عليها الضعفاء من متكلمي الأديان الأخرى و كانت مؤلّفه من مسائل محرّفة ما هي بالمسائل، و احتجاجات و استدلالات واهية فاقدة لاستقامة النظر، فهؤلاء لَمَّا أرادوا بيان دعواهم الحقّ الذي تقضي بصحّته إجمالاً عقولهم، و نقله من الإجمال إلى التفصيل دفعهم ضعف التعقّل و الفكر إلى غير الطريق فعمّموا الدعوى، و توسّعوا في الدليل، فحكموا باستناد كلِّ معلول مجهول العلة إلى الله سبحانه من غير واسطة، و نفوا حاجة الأفعال الاختياريّة إلى علة موجبة، أو احتياج الإنسان في صدور فعله الاختياريّ إلى الإله تعالى، و استقلاله في فعله، و قد مرّ البحث عن قولهم في الكلام على قوله تعالى: (وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)^٤، و نورد هاهنا بعض ما فيه من الكلام^٥.

^١ سورة القمر، الآية ٥٣.

^٢ سورة الطلاق، الآية ٣.

^٣ سورة الحجر، الآية ٢١.

^٤ سورة البقرة، الآية ٢٦.

^٥ راجع تفسير الميزان ج ١ ص ٩٣ - ١١٠. والبحوث المنتخبة تحت عنوان: الجبر والاختيار.

مشكلة بعض المسلمين

و طائفة منهم - و هم بعض المحدثين و المتكلمين من ظاهريي المسلمين و جمع من غيرهم - لم يقدروا أن يتعقلوا معنى صحيحًا لإسناد أفعال الإنسان الاختيارية إلى الله سبحانه على ما يليق بالمقام الربويّ فنفوا استناد مصنوعات الإنسان إليه سبحانه، و بالخصوص فيما وضعه للمعصية خاصّة كالخمر و آلات اللهو و القمار و غير ذلك، و قد قال تعالى: **(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)**^١. و معلوم أنّ ما عدّه الله سبحانه عملاً للشيطان لا يجوز أن ينسب إليه.

و قد مرّ فيما تقدّم^٢ ما يظهر به بطلان هذا التوهّم نقلاً و عقلاً، فالأفعال الاختيارية كما أنّ لها انتساباً إلى الله سبحانه على ما يليق به تعالى كذلك نتائجها و هي الأمور الصناعية التي يصنعها الإنسان لداعي رفع الحوائج الحيويّة.

على أنّ الأنصاب الواقعة في الآية السابقة هي الأصنام و التماثيل المنصوبة المعبودة التي ذكر الله سبحانه أنّها مخلوقة له في قوله: **(وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ)**، (الآية) و من هاهنا يظهر أنّ فيها جهات مختلفة من النسب ينسب من بعضها إلى الله سبحانه و هي طبيعة وجودها مع قطع النظر عن وصف المعصية المتعلّق بها، فإنّ الصنم ليس بحسب الحقيقة إلا حجراً أو فلزاً عليه شكل خاص و ليس فيه ما يوجب نفي انتسابه إلى موجد كلّ شيء، و أما أنّه صنم معبود دون الله سبحانه فهذه هي الجهة التي يجب نفيها عنه تعالى و نسبتها إلى عمل غيره من شيطان أو إنسان، و كذا حكم غيره من حيث انتسابه إليه تعالى و إلى غيره.

فقد تبين من جميع ما مرّ أنّ الأمور الصناعية منتسبة إلى الخلقة كاستناد الأمور الطبيعيّة من غير فرق، نعم يدور الأمر في الانتساب إلى الخلقة مدار حظّ الشيء من الوجود فافهم ذلك.^٣

^١ سورة المائدة، الآية ٩٠.

^٢ راجع تفسير الميزان ج ١ ص ٩٣ - ١١٠. والبحوث المنتخبة تحت عنوان: الجبر والاختيار.

^٣ تفسير الميزان ج ١، ص ٤٠٠ - ٤٤٠. ملاحظة: هذه المقالة مقتبسة من كتاب "تفسير الميزان" للعلامة الطباطبائي (رضوان الله عليه). وقد قامت الهيئة العلمية في "مدرسة الوحي" بتحقيق النص ضمن حدود تصحيح الأخطاء الإملائية والنحوية،

وإضافة العناوين أو تعديل الموجود منها (سواء من المصنّف أو المحققين) بهدف التوضيح. كما شمل العمل ترتيب الفقرات بحسب الأفكار، وإضافة هوامش توضيحية لبعض المفردات أو الأفكار الغامضة، مع الحفاظ التام على أصل المتن والإشارة الدقيقة إلى مصدره؛ وذلك لتسهيل الاستفادة من هذا السفر القيّم، واستخراج جواهره، وتبسيط الضوء عليها.



@MadrastAlwamy

